مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

المغاربة بين الطاعون والوباء
زمن المولى سليمان (١٧٩٢/١٨٢٢م)

عبد الله امجهادي
باحث في سلك الدكتوراه
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

تعتبر الأوبئة والطواعين والمجاعات والكوارث الطبيعية بشتى أصنافها وسيلة حاسمة لفهم جوانب من تاريخنا الوطني، واستيعاب أهم التحولات التي مست حياة الإنسان، خاصةً وأنها أثرت على كل زاوية من زوايا المجتمع من اقتصاد وديموغرافية وسياسة. ومن المعلوم أن المغرب عانى من ويلات الأوبئة والمجاعات لسنوات كثيرة، وشهد توالي الكوارث الطبيعية طيلة تاريخه الطويل، حتى تكاد لا تخلو فترة تاريخية من ذكر شدة بأس الوباء أو توالي الكوارث وتفاقم الغلاء واستعصاء الحياة. لقد خصصنا هذا المقال للبحث في موضوع الطاعون والوباء في فترة مفصلية من تاريخ المغرب وهي فترة المولى سليمان، فلقد اعتبر مجموعة من الباحثين أنها كانت فترة رخاء وازدهار إذ يؤكدون على أنها تزامنت مع فترة استقرار واستراحة. لكن ما استقيناه من المصادر التاريخية يؤكد على أن الأزمات التي شهدتها الفترة، رغم قلتها إلا أن وقعها كان عميقًا على المجتمع، فلا نعتقد بأن المغرب شهد فترة حكم طويلة تزامنت مع استراحة الناس من أهوال الطبيعة، فكل فترة كيفما كانت طالت أو قصرت إلا وتخللتها أزمات صعبة تدفع بالناس إلى اليأس والخضوع، وتجعلهم يتركون الأمر بيد الله لعله يخفف عليهم ما نزل.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٤ نوفمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٠٤ يناير ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

الطاعون؛ الوباء؛ الأزمة؛ تاريخ المغرب الحديث؛ تاريخ الأوبئة؛ المجاعات؛ الطواعين

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.333776.1182

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الله امجهادي. "المغاربة بين الطاعون والوباء زمن المولى سليمان (١٧٩٢/١٨٢٢م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد التاسع والستون؛ يونيو ٢٠٢٥. ص ١١٣ – ١٢١.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: imajhadiabdellah@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

يفتح لنا البحث في تاريخ الأوبئة والمجاعات وتاريخ الكوارث الطبيعية بابا مهما، يساعد على سبر أغوار التاريخ الطبيعي وكشف ما له من تأثيرات على الإنسان بشكل مباشر، عبر ما يخلفه من موت وخراب جراء الأزمات المختلفة سواء المرتبطة بالجفاف أو المتعلقة بالفيضانات والانجرافات وما تحمله معها من دور وإنسان وحيوان.

لقد اهتم الباحثون والمؤرخون كثيرًا بهذه المواضيع الجديدة على حقل التاريخ، وتوزعت الدراسات بين كل فترات التاريخ المغربي بداية بالقديم مرورا بالوسيط والحديث وصولاً إلى الفترة المعاصرة، ولعل أغلب النتائج التي تم التوصل إليها تتفق على أن الإنسان المغربي كان يقف عاجزًا أمام هول هذه الكوارث ويكتفي ببعض الحلول الترقيعية لما بعد الكارثة، إذ كثيرًا ما يستبعد أن تكون هناك مبادرات للوقاية من الحوادث التي أصبحت مع مرور الزمن متداولة حتى اعتاد عليها الناس، بل قام البعض منهم بربطها بغضب الطبيعة وربطها آخرون بغضب الله، فاستسلموا للموت وواجهوا سوء المصير.

في إطار تتبعنا لمسار الأحداث التاريخية التي شهدها المغرب خاصةً في الفترة العلوية، توقفنا مطولا عند ما خطته أقلام المؤرخين سواء الإخباريين المعاصرين لها، أو الجدد الذين كتبوا عن الفترة من زوايا متعددة. لاحظنا التركيز الكبير على الجانب السياسي خاصةً بعد أزمة الثلاثين سنة التي أدخلت البلاد بعد وفاة المولى اسماعيل في دوامة من الأزمات التي كانت جلها تتمحور حول الصراع على السلطة، من طبيعة الحال التركيز على الجانب السياسي لا يعني أن المرحلة لم تعرف ظواهر طبيعية عمقت الأزمة، بل يبدوا أن التوجه العام للمؤرخين الإخباريين كان منصبًا على السلطة السياسية وما حام حولها من مشاكل جمة.

لم تكن فترة حكم المولى سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢م) مستثنية من هذه الظاهرة، وهذا الأمر هو ما تؤكده بعض الكتابات التاريخية التي أشارت على أنها كانت من أحسن الفترات التي شهدتها البلاد، حيث اعتبرتها فترة استراحة من ويلات امتدت طيلة السنوات السابقة لهذه الفترة. وربما هو أمر يمكن اعتباره من بين الأسباب التي جعلت المؤرخين لا يهتمون بالحديث عن الجانب الطبيعي إلا النزر القليل منهم، والذين أرخوا للطاعون والمجاعة اللذان كسرا الهدوء العام من ويلات الطبيعة، وبالتالي يمكننا أن نتفق على أن الفترة شهدت بدورها فترات انتشر فيها الوباء واشتد فيها القحط والمجاعة وان كانت بوثيرة متباينة.

أولاً: الطاعون[١] الكبير (١٧٩٨-١٨٠٠م)، أول اختبار لحكمة السلطان

تعتبر مرحلة حكم السلطان مولاي سليمان من بين الفترات التي عرفت رخاء وهدوء نسبيًا، خاصةً فيما يهم الجانب الطبيعي، حيث ساد الاستقرار من حيث الأوبئة والمجاعات، وشهد غيابا شبه تام للكوارث الطبيعية، ونجد هذا الأمر متجليا عند الضعيف الرباطي الذي يقول: "لقد كانت المرحلة الأولى من عهد المولى سليمان (١٧٩٢-١٧٩٧م) من المراحل التي نعمت فيها البلاد برخاء نسبي، حيث كانت محاصيل القمح وفيرة وأثمانها رخيصة، مما جعل منها أهم مادة تصديرية في مراسي الشمال والجنوب على السواء"[٢]. فلقد عرف المغرب فترة استراحة ليس على المستوى الاقتصادي فقط، ولكن على جميع المستويات خاصة منها السياسية، وما وجب الإشارة إليه هنا أن الكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات لا تتأخر كثيرا عن الحلول على المجتمع المغربي حيث إن دورتها لا تتجاوز في الغالب الثلاث سنوات.

هذا ما اتفق عليه مجموعة من المؤرخين من خلال بروزه بوضوح في هذه الفترة فلم تكد سنة ١٧٩٨م أن حلت حتى انقلبت الأوضاع رأسًا على عقب، فلقد أصيبت البلاد بأزمة شديدة، لم تشهد مثلها من قبل، يقول عنها صاحب "الاستقصا": "وفيها كانت المجاعة العظيمة بالمغرب والفتن ونهب الدور بالليل بفاس وغيرها وصار جل الناس لصوصًا، فكان أهل اليسار لا ينامون لحراستهم دورهم وأمتعتهم وهلك من الجوع عدد لا حصر له حتى لقد أجبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وزيادة سوى من كفنه أهله هذا بفاس وليقس عليها غيرها..."[٣].

في نفس السياق تضيف بعض الشواهد على أن الأمور تغيرت في سنة ١٧٩٨م، عندما حل بالبلاد جفاف تبعه اكتساح الجراد للمحاصيل، وعن هذه الأزمة الفلاحية يقول القنصل البريطاني في تقرير كتبه في غشت من نفس السنة: "إن الزراعة بالمغرب قد عرفت نكسة شاملة"[٤]، وبالتالي صار ثمن القمح باهظا[٥]، وأصبحت البلاد معبدة لأسوأ كارثة ديمغرافية عرفتها البلاد منذ قرون.."[٦]، فلقد اعتبرت من أسوء الكوارث التي عرفتها البلاد مع بدايتها سنة ١٧٩٩م، والأخطر أنها لم تكن زراعية كما العادة، ولكنها كارثة ديموغرافية بامتياز. وعرفت هذه الكارثة "بالطاعون الكبير"، والذي أتى على قسم كبير من السكان، فأصبحت المحاصيل الزراعية، على وفرتها، دون فائدة بسبب انعدام من يجمعها من الحقول، ويقول الفشتالي عنها: "جاءت الصابة لكن لا غالب لها"[٧]، فهل ساهمت قلة خبرة السلطان في تدبير الشؤون الخاصة بالدولة في تفشي الوباء وانتشاره بعد ظهوره الأول؟

لقد ورد في مجموع ما كتب حول الطاعون الكبير لا سواء من مصادر تقليدية أو كتابات ومقالات عمقت النقاش في الموضوع وأحاطت بجميع جوانبه أن السلطان قد ساهم بطريقة أو بأخرى في انتشار الطاعون بشكله المهول والذي غطى جل ربوع البلاد من خلاله الحركات التي قام بها في نفس السنة التي ابتدأ بها، فانتقاله إلى مراكش مع جيشه وحاشيته وقومه ساهم بشكل كبير في انتشار المرض في ناحية مراكش ومعها كل المناطق التي مر بها أو حط بها الرحال، وهذا الأمر يؤكده الفشتالي بقوله: "في سنة ١٢١٣ه تحرك السلطان مولاي سليمان بن محمد بن عبدالله بن اسماعيل لأرض مراكش ومعه خلق كثير، ولم يكن لسفره دليل وموجب"[٨]، فجيش السلطان نقل العدوى من فاس إلى الرباط ثم إلى باقي السهول الأطلنتكية"[٩]. وما يثير انتباهنا فيما قيل إن المرحلة لم تكن تستدعي أي تحركات من السلطان فقد كانت كما قال الفشتالي بدون موجب، أي بدون سبب، وربما لم يفطن السلطان لخطورة الأمر، رغم ما سجل من وفيات بالجملة في صفوف الجيش والحاشية التي سارت معه في الحركة، ولكن على ما يبدوا أن المصادر أغفلت هم السلطان الذي كان هو إخماد بعض الثورات التي بدأت تظهر من طرف بعض القبائل كآيت أومالو، وبذلك كان الهاجس الأمني أكبر من الهاجس الوبائي.

يؤكد الضعيف الرباطي بدوره انتشار الطاعون بين صفوف الجيش بقوله: "وارتحل السلطان من عين عتيق لناحية أسفي، وذلك يوم الخميس ٢٩ من ذي القعدة عام ١٢١٣ه، وبات بوادي بوزنيقة، وفي كل يوم يموت من جيش السلطان كذا وكذا بالوباء إلى أن قطع وادي أم الربيع، وكأنه نهض بجندين: جند من العسكر وجند من الوباء. ولم يكن بدكالة وعبدة وأحمر وغيرهم حتى دخل جند السلطان ببلادهم[١٠]، ومن الطبيعي أن ينتشر الوباء في كل هذه المناطق، ولكن ألأصعب من ذلك ازدياد عدد الضحايا بشكل تصاعدي حيث يشير جاكسون في هذا الصدد إلى حلول الطاعون بمدينة فاس: "حصد هذا البلاء غير المسبوق ضحية إلى ضحيتين في اليوم ثم ثلاثة إلى أربعة في اليوم الثاني، فستة إلى ثمانية في اليوم الثالث، وتصاعدت وتيرته حتى بلغ عدد الوفيات اثنين في المائة من مجموع السكان"[١١]، فلقد حدثت رجة ديموغرافية عنيفة أثناء فترة انتشار الطاعون، ربما تعتبر من أكبر مخلفات الأوبئة والطواعين في المغرب، والسبب راجع بشكل كبير لوجود بيئة خصبة ساهمت في انتشاره وغابت عنها أساليب مكافحته وعلاجه.

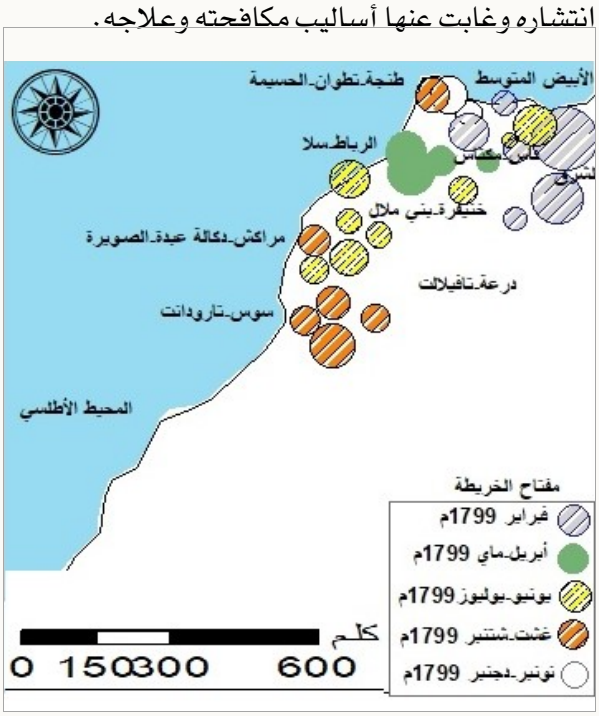

خريطة رقم (١)

مناطق ومراحل انتشار الطاعون الكبير لسنة ١٧٩٩م[١٢]

لقد امتد انتشار الطاعون الكبير لسنتين حسب المصادر التاريخية التي ذكرته، رغم التناقض الذي عرفته في تحديد سنة انطلاقه وكذلك في مصدر دخوله للمغرب، ولكن ما اجتمعت عليه هو انتشاره في جل ربوع البلاد، وكانت سنة ١٧٩٩م هي سنة الذروة كما تبين (الخريطة رقم ٠١)، حيث يقول أبو القاسم الزياني :"وفي هذا العام دخل الوباء للمغرب فعم حواضره وبواديه"[١٣]، وارتفع عدد ضحاياه بشكل كبير وهو ما جاء في تقييد لعبدالسلام الفشتالي الذي دون: "الحمد لله، فشى الطاعون بالمغرب وأول ما ظهر بقبيلة لوداية حتى فنى من شاء الله بمحلتهم النازلين بصواغة ونواحيها، ودخل القصبة وفاس الجديد منتهى جمادى الثانية عام ثلاث عشر ومائتين وألف (دجنبر ١٧٩٨م) حتى تحيرت الناس وفتنوا الأحياء من كثرة الموتى ... ثم دخل فاس أواخر شعبان من العام المذكور (فبراير ١٧٩٩م) حتى ازداد أمره واشتد بأول شوال (٨ مارس ١٧٩٩م)، حتى صاروا يدفنون ما يزيد على ألف كل يوم"[١٤]، ومما يظهر من أغلب المصادر التي اهتمت بتدوين خطورة هذا الوباء هو ما خلفه من خسائر فادحة في الأرواح، فاضطر البعض للهرب خاصةً الأجانب الذين تركوا البلاد خوفًا من الإصابة والوفاة.

يورد دانييل شروتر في سياق حديثه عن يهودي السلطان صاحب المجموعة الوثائقية التي اشتغل عليها لإعداد كتابه وهو المذكور "صاموئيل ليفي قرقوز (Samuel lévicarcos)، "التي تمتد زمنيا لتغطية جزء من تاريخ حكم المولى سليمان، والذي استهل إقامة أولى طويلة الأمد في لندن سنة ١٨٠٠م، في وقت كان فيه الطاعون الكبير يجتاح أرض المغرب"[١٥]، ويستمر المؤلف قائلا:"...ولكنه على الأرجح لم يترك البلاد بحثا عن فرص أحسن للكسب، بل فر خوفا من مداهمة الموت له من جراء الوباء الفتاك الذي كان يجتاح شمال إفريقيا عند منعطف القرن التاسع عشر، ألا وهو طاعون الدملي"[١٦]. ولقد ذكر الكاتب مجموعة من التجار الذين هربوا إلى الدول الأوربية خوفا من هذا الطاعون الفتاك ومن بينهم التاجر "مايير مقنين" الذي راكم ثروة كبيرة ومكانة اجتماعية مرموقة سواء لدى السلطة المركزية وكذلك لدى الدول الأجنبية، ورغم ذلك فر هاربا لما اجتاح الطاعون المغرب في بداية القرن التاسع عشر"[١٧].

ما يمكن استنتاجه من مجموع الإشارات التي تناولت الموضوع اتفاقها على الانتشار الواسع والقوي للطاعون في فترة وجيزة، إضافة إلى فتكه بحياة بالعديد من الناس، فاضطر من كانت لهم القدرة المالية للهجرة هربا من توابعه، في حين واجه من لم يستطع مصيره، فلقد أشارت بعض التقديرات المعقولة وعلى الرغم من عدم دقتها، إلى أن ربع السكان بوجه عام لقي حتفه، بينما كانت الخسائر أكثر بكثير في المراكز الحضرية، حيث بلغ عدد ضحايا الوباء في كل أرجائها ما بين النصف والثلثين من مجموع سكانها"[١٨]، فهي معطيات تصور هول الفاجعة، وإن كانت الأرقام غير مضبوطة بالرغم من عدم وقوفنا عند دراسات تؤكد هذه الفرضية، لكن ما يتضح بشكل جلي هو أن المغرب في هذه الفترة شهد أهم كارثة طبيعية في تاريخه، خاصةً وأن المجتمع المغربي لم يكن قادرا على حماية نفسه من الإصابة بالطواعين، ولم يكن كذلك قادرا على علاجه، ولا حتى الالتزام ببعض التدابير الاحترازية البسيطة التي تكفل وقفه أو حصره مثل الحجر الصحي، فشروتر في معرض حديثه عن هذا الجانب قال: تقدم لنا رواية لرحالة أوربي مثالا نموذجيا في هذا الشأن "إن المسلم لا يعرف كيف يحمي نفسه من الطاعون والجذام، كما أنه لا يرغب في معرفة ذلك. وحسب المعنى الحرفي للقرآن – أو بالأحرى حسب تفسيره المبهم من قبل الفقهاء المغاربة- فإن كل محاولة لصد البلوى أو الكوارث التي يمكن أن يسلطها الله على المؤمنين الحقيقيين من عباده، لتعتبر اقترانا للإثم والمعصية"[١٩]، وإن كان هذا القول صائبا في جزء منه إلا أننا لا يجب أن نغفل تدخلات السلطة المركزية التي اتخذت مجموعة من التدابير لحماية دخول الطاعون من البلدان المشرقية، خاصةً في فترة الحج التي يتوافد عليها غالب المغاربة، وتكون مناسبة للإصابة بمثل هذه الأمراض[٢٠].

من الواضح إذن أن فترة حكم المولى سليمان عاشت أول ضربة موجعة وأول اختبار لمدى قدرته على تجاوز المحن الطبيعية، التي اعتبرت أصعب ما يمكن أن يواجهه بعد الهدوء الذي عرفه المجال السياسي. فبعد هاتين

السنتين سينتقل المغرب إلى مرحلة استراحة، مكنت المغاربة نسبيا من التداوي والاستشفاء وإعادة البناء، في انتظار عودتها من جديد.

ثانيًا: وباء[٢١] (١٨١٨-١٨٢٠م)، اشتداد الأزمة

خرج المغاربة من "الطاعون الكبير" منهاري القوى، يحاولون لملمة ما فتك بهم من أمر، فكانت سنوات ١٨٠١ إلى ١٨١٧م فترة استراحة، عرفت فيها البلاد نوعا من الرخاء، فإذا حاولنا إجمال ما عرفته الفترة بصفة عامة سنوافق ما قاله البزاز محمد أمين بأنه: "في عهد مولاي سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢م) وبداية عهد خلفه المولى عبدالرحمان (١٨٢٢-١٨٥٩)، تعرض المغرب لثلاث كوارث طبيعية جديدة تركت كل واحدة منها بصماتها على حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، الأوليتان تمثلتا في طاعون ١٧٩٨-١٨٠٠م ووباء ١٨١٨-١٨٢٠م، والثالثة في مجاعة ١٨٢٥-١٨٢٦"[٢٢]. وما بين الكارثة الأولى والثانية حوالي ١٨ سنة تخللتها سنوات هادئة، وربما بعض السنوات الصعبة ولو كانت بنسبة أقل خطورة من التي ركز عليها البزاز، حيث يمكن القول أن الاختلافات الحاصلة هو من حيث نوع كل كارثة، وحدتها، والنتائج المترتبة عنها، لأن بعض المراجع تقول بأن أسوأ كارثة عرفتها البلاد في سنة ١٧٩٩م إذ لم تكن زراعية بل كانت ديمغرافية، حيث أتى "الطاعون الكبير"، على قسم مهم من السكان، فأصبحت المحاصيل الزراعية، على وفرتها، دون فائدة بسبب انعدام من يجمعها من الحقول، كما قال الفشتالي في هذه الصدد: "جاءت الصابة لكن لا غالب لها"[٢٣].

بعد مرور ثمانية عشر سنة على وقوع الطاعون، ستكون البلاد معبدة لكارثة وبائية جديدة ستنطلق في ٢٢ مايو ١٨١٨م، مع وصول أول أفواج الحجاج المغاربة القادمين من مكة المكرمة عبر الإسكندرية، والتي ستسجل أولى حالات الوباء[٢٤]، وما سيزيد من تأزيم الوضع هو عدم خضوعهم لحجر صحي حتى يتسنى معرفة إمكانية حملهم للوباء من عدمه. وبعد أقل من شهر من الزمن سيتم إعلان الوباء بشكل رسمي من قبل القنصل الإسباني في طنجة[٢٥]، فشهر واحد سيكون كافيا لظهوره بشكل ينذر بخطورة قادمة في الأفق القريب.

سينتشر الوباء في البلاد على مراحل بنفس الطريقة التي انتشرت بها أغلب الأوبئة التي شهدتها البلاد، مع اختلافات طفيفة في سرعة انتشاره والوعي به من عدمه. وما يمكن قوله هنا أن الجهل بالمرض وخطورته أو اللامبالاة تكون دائمًا سببًا في بلوغه لمراحل متأخرة يصعب معه إيجاد الحلول لمكافحته، بالإضافة إلى غياب الأودية الخاصة والأطقم الطبية الكافية لعلاجه أو حصره. وفيما يلي مبيان يوضح مراحل انتشار الوباء وعدد الوفيات التي شهدتها كل مرحلة:

مبيان رقم (١)

مراحل انتشار الوباء ما بين ماي ١٨١٨م و مارس ١٩١٩م

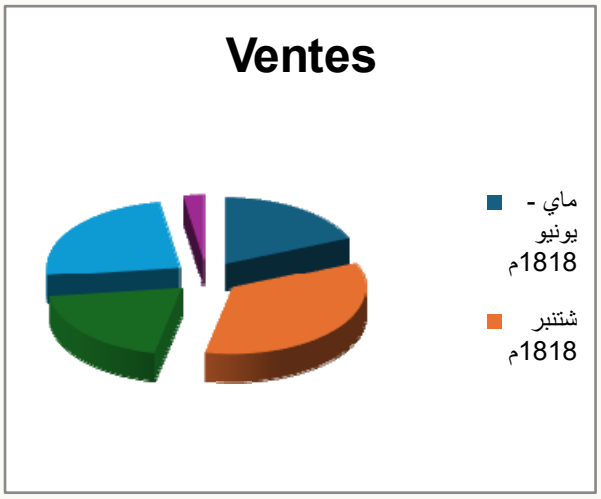

ما يتم استنتاجه من هذا المبيان أولاً التباين الواضح بين كل مرحلة على حدة، فالمرحلة الأولى للوباء سجلت وفيات قليلة مقارنة بالمرحلة التي تليها حيث تعتبر ذروة الانتشار، فلقد تصاعدت عدد حالات الوفيات بشكل كبير جدا، لكنها لم تبلغ أقصاها حتى المرحلة الثالثة والرابعة اللتان شهدتا أكبر عدد من الموتان وصل إلى ٧٣٦ حالة. وبعدها ستبدأ الحالة للعودة إلى سابق عهدها من خلال تراجع عدد الوفيات كبداية لانحصار الوباء وتراجعه إلى أن انتهى وقعه في نهاية سنة ١٨١٩م.

في هذا الإطار يمكن القول بأن السنوات الطيبة لا تدوم طويلا، فكما سبقت الإشارة إلى ذلك لم ينعم المغاربة طيلة فتراته التاريخية بالهناء على الدوام، بل كثيرا ما تتخللها مراحل وفترات قاسية تؤدي بحياة

الناس إلى الوفاة، وهو نفس ما عاشته فترة حكم المولى سليمان، رغم أنها امتازت بطول أمد الراحة مقارنة مع ما قبلها، ويقول البزاز محمد الأمين في هذا الصدد بأن بعد هذه المرحلة من الراحة بلغت حوالي ١٥ سنة[٢٦]، ومن الطبيعي أن تأتي أزمة أخرى بعدها مرتبطة بالغلاء، يخبرنا عنها المنصور محمد: "إن الرخاء لم يستمر طويلا، فسرعان ما مال منحاه غلى الهبوط وكان أول مؤشر لهذا الهبوط قلة الأمطار في الجنوب سنة ١٨١٨م"[٢٧]، ولا نعتقد بأن هذه السنوات كلها مرت دون أية أزمة تذكر، فجميع المصادر تؤكد على مسلمة مفادها أن المغرب يتعرض لأزمة دورية كل سبع سنوات[٢٨]. ولا يمكننا إلا أن نؤكد هذا القول دون أن ننفي بأن المغرب عاش بشكل عام فترة مهمة من الاستراحة، استراحة من أزمة سياسية تعتبر من أعمق الأزمات التي عرفها المغرب فيما قبل الاستعمار، واستراحة من أزمة طبيعية أنعم بها الله على عباده لمدة وصلت ل ١٨ سنة تقريبا، فكيف تعامل المغاربة مع هذه الفترة؟ وهل فعلا استطاعوا تجاوز المخاوف التي كانت دائما مرتبطة بأذهانهم كلما اقترب فصل الشتاء، أو طالت مدة الجفاف؟

ثالثًا: الاستراحة من ويلات الطاعون، فرصة لاسترجاع الأنفاس

يتفق العديد من المؤرخين على أن إصابة الناس بالطاعون، تعتبر في أحيان كثيرة أهول من تعرضهم للقحط والنقص في المواد الغذائية، فالأمطار وإن جاءت وفيرة وكانت الظروف المناخية مواتية، صعب على الناس فلاحة الأرض لأسباب متعددة يتجلى بعضها في لنفوق أغلبيتهم من جهة، وهجرة من نجوا من هول الطاعون وتبعاته من جهة ثانية. أما الارتباط بين الآفات الثلاثة (المجاعة – الطاعون – الغلاء) فيجعل السكان يقفون عاجزين عن أي رد فعل ممكن، ويكون الملاذ الأسهل بالنسبة للناس هو المساجد والزوايا تقربا من الله وطلبًا للعفو والمغفرة والرحمة.

تعتبر فترات الاستراحة من أهم الفترات التي تعيشها الرعية خاصة بعد خروجها من أزمات حادة تسبب تغييرات عميقة على جميع المناحي الحياتية، وتبين أغلب المصادر التي اهتمت بتناول موضوع الأوبئة والمجاعات والأزمات المناخية/ المطرية، الأثمان والأجور، عن وجود ثلاث فترات أساسية يمكن أن يقسم إليها التاريخ الطبيعي أو تقسم إليها العلاقة بين الإنسان والعوامل الطبيعية المحيطة به، وهي فترة أزمة سواء أكانت ذات أثر سلبي كالجفاف من جراء انحباس المطر أو ذات أثر إيجابي ولكنه يكون بمفعول سلبي وهو الوفرة التي تؤدي إلى نتائج عكسية كالفيضانات والإنجرافات، ثم فترة الهدوء حيث تكون السنة مطيرة على قدر الخصاص، يكون معها الخصب وتتوفر فيه الحبوب والأغذية وتنتشر فيها الخيرات، وكثيرا ما تكون هذه السنوات ولو كانت قليلة كفيلة بأن تنسي المغاربة هول ما تجرعوه في سنوات الغضب من مرارة الفاقة والحاجة التي تصل في أحيان كثيرة إلى الوفاة.

رغم كل هذا، وبعد توالي المجاعات والأوبئة ردحا من الزمن، استراح المغاربة من هذه المحن فترة تمتد إلى نصف قرن، لتعاود الظهور من جديد، حيث ظهر الوباء وأصبح المغرب يعيش بين عشية وضحاها يعيش "ذروة أزمة لا مثيل لها في نهاية قرن تتالت فيه شتى ضروب المحن، من حروب أهلية وقحوط ومجاعات"[٢٩]. فهذا الاختفاء لمدة وجيزة، والظهور من بعد كان كفيلا لإعطاء السكان مهلة للاستراحة، وإعادة الاستقرار والتعمير، ولما لا تخزين ما يمكن تخزينه من الحبوب لمواجهة ما ستأتي به السنوات اللاحقة من تغيرات جديدة، وهو ما يؤكده الضعيف الذي سجل بدوره ما عاشه المغرب في هذه الفترة من رخاء، حيث تهاطلت الأمطار بشكل جيد ساهم في انتشار الخصب..."[٣٠].

يزيد من تأكيد هذا السكون الذي شهدته هذه المرحلة ما أشاد به كذلك الناصري الذي قال: "وفي هذه السنين كلها كانت الرعية في غاية الطمأنينة والأمن والخصب والرخاء...، وكانت القبائل قد تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات لديها...فصارت القبيلة التي تعطي عشرة آلاف مثقال مضاربة أيام والده (سيدي محمد بن عبد الله) يستخرج منها على الشرع عشرون وثلاثون ألف مثقال"[٣١]. من خلال هذه الإشارات يتأكد الطرح الذي جاء به البزاز من أن المغرب تمتع خلال المدة المتراوحة بين ١٨٠١-١٨١٦م بفترة من الهناء، بحيث أن

مصادرنا لا تشير خلال المدة إلى ظهور أي وباء. لتتزامن هذه الاستراحة القصيرة مع ظرفية مناسبة مكنت السكان من استئناف حياتهم العادية، وتحقيق نوع من التوازن بين محيطهم الطبيعي وبين إنتاجهم وحاجياتهم[٣٢].

من الطبيعي أن تشهد فترة المولى سليمان بدورها سنوات من الرخاء ربما اعتبرت من الفترات الأكثر رخاء في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وخاصة منها التي غطت السنوات الممتدة ما بين ١٨٠٠م إلى ١٨١٥، ربع قرن اعتبر بالنسبة للزياني بداية جيدة للقرن التاسع عشر: "كانت القبائل تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات عليها"[٣٣]. فالوباء الذي أفنى جزءا من الساكنة، ساهم بشكل أو بآخر في إثراء من بقي على قيد الحياة. وربما يفهم من قول الزياني ومن مجموعة من الإشارات التي تسير في نفس المنوال، أن من رحم المعانات تتولد النعم، ولو أنها تكون على حساب الجانب الأخلاقي والديني، فالمترامي على ما خلفه الموتى من أراض بدون وجه حق يفتح الباب أمام بعض السلوكيات التي ارتبطت بشكل مباشر بمخلفات الأوبئة والمجاعات، ولقد تطرق لهذا الموضوع مجموعة من الباحثين، خاصةً فيما يتعلق بالذهنيات التي رافقت مثل هذه الكوارث على تنوعها.

إن السنوات التي تعرف نوعًا من الاستقرار الطبيعي تترك المجال للسكان للعمل والبدل ولهذا نشهد نوعا من الحركية التجارية والانتعاش الصناعي والعطاء الفلاحي، فلقد ارتبط رخاء الصنائع حسب لوتورنو بشكل وثيق، بيسر الفلاح، فقد كان لسنوات الجفاف والمحاصيل الهزيلة آثار مباشرة على الصناعة والتجارة على السواء. ففي مثل هذه السنوات كان على أهل الحواضر إنفاق جزء هام من مداخيلهم لاقتناء الأقوات، وتحديدا الزرع. وبالمقابل كان الجز في الغلال يقلص من نفقات سكان القبائل ويحد من قدرتهم لشراء منتجات المدينة. لقد وفر صناع الحواضر للقبائل الأسلحة والسروج والمواد الجلدية والأقمشة وسائر الأدوات المنزلية[٣٤]، مما يساهم في توفير فرص الشغل ولقمة العيش والراحة المادية التي تغيب أثناء الأزمات.

يقول أكنسوس من جهته عن الفترة بأن الوباء انقطع بالمغرب، بفاس ومكناس ونواحيها، وظهر في الدنيا سرور وفاضت الخيرات بمتخلف الأموات[٣٥]. أما الناصري الذي سار على نفس المنوال فقد قال: "وفي هذه السنين كلها كانت الرعية في غاية الطمأنينة والعافية والأمن والخصب والرخاء وكمال السرور والهناء[٣٦]. وينطبق ذلك بالتحديد على أواسط عهد المولى سليمان، ثم يضيف نفس المؤرخ: "لقد أدركنا الجم الغفير ممن أدرك أواسط دولته فكلهم يثني ليها"[٣٧]. فلقد شهدت مرحلة ما بين ١٨٠٠ و١٨١٢ رخاء فلاحيًا مؤكدًا، بحيث هبطت أسعار الزرع إلى أدنى مستوى لها. بل كان بإمكان المغرب إرسال كميات من القمح إلى البلدان الجارة، ولقد سمح المولى سليمان في هذه الفترة بتصدير ٥٠٠٠٠ قنطار من الحبوب لتزويد الجيش البريطاني الذي كان يحارب جيوش نابليون في لشبونة وقادس[٣٨].

ظلت البلاد طيلة هذه السنوات إلى غاية سنة ١٨١٦م، بإجماع من جل المصادر التاريخية تتوفر على ما يكفي لسد حاجياتها، بل وفاض عليها ما يزيد عنها[٣٩]، حتى اشتهرت المرحلة بالرخاء وانعدام الغلاء وتوفر الأقوات، ما ساهم في الدفع بعجلة الاقتصاد من خلال إعادة فتح بعض الموانئ لتصدير المواد الغذائية إلى أوروبا، ومن طبيعة الحال ستلتئم جروح المغاربة التي ما فتئت تتفتق بسبب الدورة المناخية القاسية، فكانت بحق مرحلة لإعادة أخذ النفس من أجل مواجهة قادم الأزمات في مغرب يمكن أن نلخص تاريخه في صفحات من النضال ضد الأزمة.

خَاتِمَةٌ

خلاصة القول، أن الأوبئة والطواعين التي تكون ناتجة عن الدورات المناخية القاسية والتي تؤدي إلى تخريب المزروعات وهلاك الماشية، وبالتالي هلاك المحاصيل الزراعية ثم النقصان الحاد في المواد الغذائية إن لم نقل انعدامها، فغلاء القليل المتواجد يساهم بدوره في أزمات أخرى أهمها صعوبة الحصول على الغذاء، وبالتالي موت عشرات الآلاف من البشر، نتيجة الجوع وانتشار المرض، وانعدام الوقاية والعلاج، إضافة إلى الحروب التي كانت ترخي بظلالها بين الفينة والأخرى على هذه الكوارث، فتساهم بدورها في تتمة مسلسل الهلاك الذي يسري في العباد كالنار في الهشيم.

وإذ كانت مقاومة نتائج المجاعة، يتعاون في تنظيمها الدولة والمجتمع، فإن الأمراض الفتاكة المعدية، تفترض وعيا صحيا ومعرفة بوسائل الوقاية، غير أن المعتقدات العامة كانت ترفضها بحجة أنها أتت من "النصارى" أي من الغرب الاستعماري. فيزيد الجهل وقلة الوعي بخطورتها الطين بلة، وبذلك يكون الإنسان المغربي في فترة ما قبل الاستعمار يصارع الطبيعة ويكون عليه الدفاع على ثلاث واجهات: الأوبئة والطواعين، المجاعات والمساغب، غلاء الأسعار وانعدام فرص العمل.

الإحالات المرجعية:

(١) يدخل الطاعون ضمن الأمراض المعدية القاتلة والتي تسببها برسينية طاعونية، سميت على اسم عالم البكتيريا الفرنسي السويسري "ألكسندر برسين" الذي اكتشفها سنة ١٨٩٤م، وينتقل هذا المرض إلى الإنسان بواسطة الفئران أو البراغيث. تسبب الطاعون في فوضى عارمة في العالم خلال العصور الوسطى، حيث أثر على كافة مناحي حياة الإنسان. فؤاد العبودي وعلال ركوك، **المغرب في مواجهة الوباء: طاعون ١٨١٨م**، مقال ضمن المجلة الصحية المغربية، عدد٩، يناير ٢٠١٥، ص:٥٨.

(٢) الضعيف، محمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد الرباطي، **تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م-١٣٨هـ/١٨١٢م**، تحقيق: محمد البوزيدي الشيخي، م١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص:٢٧٤.

(٣) الناصري أحمد بن خالد، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية**، تحقيق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، الجزء الخامس، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥، ص:١٢٨.

(٤) المنصور محمد، **المغرب قبل الاستعمار المجتمع والدولة والدين**، ١٧٩٢-١٨٢٢م، ترجمة حبيدة محمد، ص:٧٢.

(٥) الفشتالي عبد السلام بن سليمان، **تقييد في وباء ١٢١٣ه في مخطوط** بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم:٢٨٣، ص:١٢٥.

(٦) المنصور محمد، **ن م**، ص:٧٧.

(٧) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٨، ١٩٩٢، ص:٧٧.

(٨) الفشتالي عبد السلام بن سليمان، **تقييد في وباء ١٢١٣ه في مخطوط** بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم:٢٨٣، ص:١٢٦.

(٩) المنصور محمد، **ن م**، ص:١٧١.

(١٠) الضعيف الرباطي، **م س**، ص:٣١٥.

(11) James Grey Jackson, An Account Of the empire of morocco and the districts of Suse and Tafilelt, Third Edition, 1868, P.176-177.

(١٢) الخريطة من إنجاز شخصي باعتماد مجموعة من الإشارات المصدرية،

(١٣) الزياني أبو القاسم، **الروضة السليمانية**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم د١٢٧٥، ص:١٨١.

(١٤) الفشتالي عبد السلام بن سليمان، **تقييد في وباء ١٢١٣هـ**، في مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم د٢٨٣، ص:١٢٦.

(١٥) شروتر دانييل، **يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد**، تعريب خالد بن الصغير، جامعة محمد الخامس أكدال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط١، ٢٠١١، ص:١١.

(١٦) نفسه، ص:١١٤.

(١٧) نفسه، ص:١١٤.

(١٨) دانييل شروتر، **م س**، ص:١١٧.

(١٩) نفسه، ص:١٥٤.

(٢٠) أنظر في هذا الصدد: البزاز محمد الأمين، **الإصلاحات والمشكل الصحي في مغرب القرن التاسع عشر**، ضمن الأيام الدراسية من ٦ إلى ٩ رجب ١٤٠٤/٢٠ إلى ٢٣ أبريل ١٩٨٣، تحت عنوان: **الإصلاح**

والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٧، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

(٢١) لا تقدم المصادر التاريخية ولا الكتابات الحديثة حول الأوبئة والطواعين تعريفات دقيقة لكل مفهوم على حدة، لكن ما يفهم من سياق قراءة الدراسات التي اتخذت من الأوبئة والمجاعات موضوعا لها، أن الوباء يطلق على كل مرض معد، ينتشر بسهولة بين الناس ويؤدي في غالب الأحيان إلى الوفاة، ويعتبر الطاعون من بين الأوبئة التي فتكت بالمغاربة ردحا من الزمن.

(٢٢) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات..**، ص:٨٥.

(٢٣) المنصور محمد، **م س**، ص:٧٧.

(٢٤) فؤاد العبودي وعلال ركوك، **م س**، ص:٥٩.

(٢٥) نفسه، ص:٥٩.

(٢٦) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات..**، ص:٨٥.

(٢٧) المنصور محمد، **م س**، ص:٣٨٥.

(٢٨) سبق أن أشار لها شارل دوفوكو وكذلك دانييل شروتر.

(29) Pascon PAUL, **Le Haouz de Marrakech**, Rabat, 1977, T1 ; P :195.

(٣٠) الضعيف الرباطي، **م س**، ص: ٣٦٥-٣٨٨..

(٣١) الناصري، **م س**، ص:١٦٩-١١٣.

(٣٢) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات..**، ص:٩٩.

(٣٣) أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف، في دولة أولاد مولاي الشريف، (من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)**، تحقيق، رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني. ص:٤٠٢.

(٣٤) روجي لوتورنو، **فاس قبل الحماية**، ج١، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص:٩٨.

(٣٥) أكنسوس، محمد بن أحمد المراكشي، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تحقيق وتقديم: أحمد بن يوسف الكنسوسي، جزآن، مراكش، دون تاريخ، ص:٢٨١.

(٣٦) الناصري أحمد خالد، **م س**، ٨، ص:١١٤.

(٣٧) المنصور محمد، **م س**، ص:٩٩.

(٣٨) رسالة من محمد بن عبد الصادق، قائد الصويرة، إلى الحكومة البريطانية، ٨. فبراير ١٨١٣، أوردها محمد المنصور، ص:٧٩.

(٣٩) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات..**، ص: ٨٠.